سورة التحريم

للاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب : بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن نفس العالم ، ويند عن تبصره) الكشاف

الانسان بطبعه طلعة ، والناس دائما يسألون عن البواعث والعلل والغايات فاذا لم يروا رغبتهم فى ذلك ظنوا وتوهموا وخالوا .. لذلك أعجل فأقول :

ان اختيارى لهذه السورة الكريمة لم ينشأ عن استعراض للقرآن ، ثم وقوف عند هذه السورة بالذات ، وانما حدثت ظروف اتفاقية وجهت نظرى اليها :

ففى يوم من الايام تناولت كتاب الله غير متعمد أن أقرأ فيه سورة خاصة ، وكان على أن ألقى غداة ذلك اليوم كلمة عن فائدة علم النفس ، فما ان اتممت قراءة سورة التحريم ، حتى غمرنى شعور قوى تركز فى صورة سؤال :

لم لا أتخذ من هذ السورة الكريمة مثالا تطبيقيا ؟ قرأت السورة مرة ثانية فاذا بى أقف مشدوها أمام ماحوته من عناصر نفسية ، واذا بى أردد قول الله تعالى :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

فسرت اذا كمثال تطبيقى ، هذه السورة الكريمة ، فهل أتيت فى تفسيرها بجديد ؟ وهل هذ التفاسير المختلفة ، القديم منها والحديث ، على كثرتها وتنوعها تركت مجالا للبحث فى تفسير القرآن ؟

لاشك أن الناس أخذوا فى تفسير القرآن منذ أن أنزل ، وان التفاسير الموجودة لاتكاد تحصى ، وان المطبوع منها قيم نفيس . وانه ليحز فى أنفسنا أن لاتزال بعض التفاسير خطية لم يتح لها أن تطبع بعد . وما من شك فى أن سعة الدولة الاسلامية ، وترامى أطرافها ، وضمها عناصر مختلفة من الشعوب والاجناس ، وأنواعا متباينة من الثقافات ، دينية

كانت أو فلسفية ، كل ذلك وغيره من عوامـــل ، كان سببا فى تعدد التفسير ، واختلافها وتباينها ، وكثرتها كثرة تجعل الشخص الذى لم يتصل بالقرآن اتصالا مباشرا ييأس ، من محاولة التجديد أمام هـــذا التراث الهائل ٠ بيد أن الشخص الذى اتصل بالقرآن اتصـــالا مباشرا يتفق مع « الشيخ عبد العزيز جاويش » فى رأيه وقد ســـئل عن خير تفسير للقرآن فقال : الزمن !!!

على أننا لسنا فى حاجة الى ألمعية فذة لتعرفنا أن كل تفسير للقرآن ، قديما كان أو حديثا ، هو تفسير ناقص ٠ فاذا أبدع صاحب الكشاف فى دقائق البلاغة وأجاد فهو ناقص فى النـــاحية التاريخية وغيرها ٠ واذا أكثر الطبرى من الرواية والنقـــل وأجاد فى الترجيـــح فانه ناقص فى تصوير ما يكشف عنه القرآن من خلجات النفس ، وهمسات الوجدان ، ومن كل هذه الدقائق الروحية التى يفيض بها القرآن ، والتى صـــورها الصوفية فى تفاسيرهم فأحسنوا وأجادوا ٠

واذا كان تفسير البقاعى ـ وهو للاسف الشديد لايزال مخطوطا رغم نفاسته ، ورغم تعدد الاصول الموجودة فى مكتبة الازهر ودار الـكتب ، والتى تسهل تصحيحه وطبعه طبعا متقنا ـ قد أحسن الحديث عن المناسبات بين الآيات وأجاد فى ربطها ، فقد قصر فى نواح أخرى ٠

ولعل القارىء يقر معى أن تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى يسرف فى الحديث عن التربية وعن الطبيعة وعن السنن الكونية ، ويقصر فى نواح أخرى غاية فى الاهمية ٠

والقرآن ولا شك هدى السماء ، والهـــدى يرتكز أولا وبالذات على الناحية النفسية ، ولذلك يرى الأستاذ أمين الخولى ، وهو محق فيمـــا يرى ، أن تفسير الشيخ محمد عبده الذى يستفيض فى النواحى الاجتماعية يأتى فى المرتبة الثانية بالنسبة لتفسير يرتكز أولا وبالذات على الناحية النفسية ٠

تفسير يرتكز على الناحية النفسية ٠٠؟ أنه لم يوجد بعد ٠ واذا أردت أن تصل برأى الاستاذ الخولى الى غايته فانه يمـــكنك أن تقول بـكل بساطة : ان القرآن لم يفسر للآن ٠ وتلك قضية لها شأنها ولها مكانتها واذا ناقشتها أو جادلت فيها فستعترف ، لاشك ، بأن منطقها لاينهار ، ـ أن انهار ـ فى سهولة ويسر ٠

ومهما يكن من شىء ، فانى أظن أن القارىء يتفق معى الآن فى أن كل تفسير ناقص ، وفى أن هذه القضية هى من البداهة بحيث لم تكن فى حاجة الى كل هذا الايضاح ٠

ان كل مايتصل بالقرآن شائك ، وكل حديث يمسه عرضة للقيل والقال ولعل من الخير أن يكون الامر كذلك . ولعل الحكمة فى الانحياد عن هذا السبيل ، وأن نكون دائما محافظين ومتحفظين .

لذلك فانى ، رغم ايضاحى السابق ، أريد أن أصل الى نفس النتيجة من طريق آخر ، هو فى الوقت نفسه تعليل لما ذكرت .

كنت أتحدث مع الدكتور أبو السعود ، فى : «القرآن والعلم» وانتهى بنا الحديث الى تفسير بعض الآيات القرآنية ، وأخذ هو يفسر « **فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر** » أخذ الدكتور يفسر هذه الآية فى دقة ، وأظننى لست فى حاجة الى القول بأنه يفهم هذه الآية فهما صحيحا نعجز عنه نحن علماء الدين .

ولا شك فى أنه يجب أن نحد من كبريائنا الأنانى لنفسح مكانا كبيرا للأطباء وعلماء الطبيعة حتى يفسروا لنا النصوص التى تتعلق بدائرة اختصاصهم والا أخطأنا وزللنا وخبطنا خبط عشواء .

وفى القرآن قصص وأخبار تتعلق بناحيتين : احداهما تاريخية محضة والثانية تاريخية دينية ، ومهما قيل فى أن المقصود بهذا القصص انما هو العبرة والعظة ، فان ذلك ، على ما أعتقد ، لايبرر جهلنا بالتاريخ ، ولايبرر الخلط فى تفسير كتاب الله . يجب اذا أن نحد أيضا من الأنانية ، وأن ندع للمؤرخين وعلماء تاريخ الاديان مكانة كبيرة شاسعة لان دائرتهم عظيمة الأهمية مترامية الأطراف .

وفى القرآن هدى يتصل بالناحية النفسية ، وفيه مسائل من صميم علم الاجتماع ، ونحن فى محيطنا الأزهرى المحدود لا قبل لنا بكل هذا . فهل من مكان لمن تخصصوا فى هذه العلوم ؟

ولقد أنزل القرآن بلسان عربى مبين . ومما يؤسف له أن أعلام البيان فى العصر الحاضر لا يكادون يمتون الى الأزهر بصلة ، ولا بد من الاستعانة بهم حتى نستفيد من خبرتهم الأدبية .

هذه المسائل التى ذكرتها ترجع فى النهاية الى الخبرة . بيد أن الخبرة أعم وأشمل ، وهى ، عملية كانت أو نظرية ، لابد منها للمفسر .

وأظن القارىء لا يقتضينى البرهنة حينما أقول :

ان ميادين الخبرة ، على اختلافها ، وتباينها ، وسعة محيطها ، لا تتركز جميعها فى فرد ، أو فى بضعة أفراد ، بل لاتتركز فى عصر ، أو فى بضعة عصور . وانما هى تراث ينمو ويتجدد مع الزمن . ومن هنا كان السر فى عمق كلمة الشيخ جاويش .

قلت ان الخبرة لا بد منها للمفسر • وأريد أن أبين الآن المدى البعيد الذى تشمله الخبرة ، وأن أضرب مثالا قد يبدو غريبـــا ، ولكنه بقليل من التأمل يظهر عاديا مألوفا ••

أرأيت الى عمرو بن أبى ربيعة ممتطيا صهوة جواده يطارد ظباء الوحش تارة ويغازل ظباء الانس أخرى ثم ترنم :

لها من الظبى عيناه ولفتته ونخوة الفاره المختال اذ صهلا

أتفهم هذا البيت ؟ ستقول : نعم• بيد انى أشك فى هذا ، فلابد لفهمه من أن ترى وأن تنتبه الى عينى الظبى ، الى لفتته ، ومن أن ترى وتنتبه الى نخوة الجواد الفاره المختال حينما يصهل • ولابد مع ذلك من أن ترى فتاة تتمثل فيها هذه الاوضاع • لقد أتيح كل ذلك لعمرو بن أبى ربيعة لأن حياته كانت مقسمة بين الخيل والغزلان ، ففهم ، وأدرك ، ووازن ، ثم شدا وترنم ، ولم يتح هذا لكثير غيره ، وهؤلاء لا شك سيمكثون بمعزل عن فهم هذا البيت •

ستقول : ان فهم البيت شىء وتذوق الجمال فيه شىء آخر ، فاذااقتضى تذوق الجمال فيه كل ذلك أو بعض ذلك فان فهمه لا يقتضى شيئا منه••

قد يبدو هذا الرأى وجيها ، غير أنه مما لاشك فيه أن الذوق لاينفصل عن الفهم ، بل هو فى الفنون لا يختلف معناه عن معنى الفهم • هل تفهم الشعر اذا لم تتذوقه ؟ هل تدرك سر البلاغة ان لم تضرب فيها بسهم ؟

هل تفهم التصوف ان لم تذق طعم الروحانية ؟ هل تفهم الموسيقى ان لم تكن ذا وجدان يتذوقها ؟

واذا كنت خبيرا بالشىء وصاحب ذوق فيه ، فانك تكون أقدر الناس على شرحه وفهمه وتفسيره •ولذلك كان البحار أقدر من عالم الدين على تفسير قوله تعالى : « **أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها** (١)•

وكثير من الناس أقدر من الفقهاء على تفسير قوله تعالى : « **الله نور السموات والأرض** •• » الآية •

ولسنا فى حاجة الى القول بأن الدكتور محمداً وصفى قد وفق ، بسبب خبرته ، غاية التوفيق فى كتابه « الاسلام والطب » ، وقد أحسن الحديث

---

(١) قرا بحار اوربى ترجمة هذه الآية فاعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم قضى حياته وسط البحار ، فلما قيل له ان محمدا لم يركب البحر قط ، اعتنق الرجل الاسلام •

عن «تطورات خلق الانسان» بمناسبة قوله تعالى : «**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ..** » الآية . وأبدع فى تبرير موقف القرآن من الخمر ، والطلاق والميتة ، والدم ، ولحم الخنزير .

لابد اذن من الخبرة بمعناها العام الشامل الذى يتضمن العلوم كما يتضمن الفنون . ولو نظرنا الى الازهر فى ضوء هذا لوجدنا أن دائرته ضيقة محدودة .

فاذا أراد الأزهر خدمة كتاب الله كان عليه ، لا مناص ، أن يستعين بأعلام البيان العربى وبكبار الباحثين فى التاريخ بما له من فروع وأقسام وبالأطباء والمشرعين والباحثين الاجتماعيين والنفسيين ، وبغير هؤلاء .

وكل ذلك ميسور ، بل سهل التحقيق . واذا كان المسيحيون قدخدموا دينهم لأن فيهم القساوسة الاطباء وفيهم القساوسة الرياضيين والطبيعيين والباحثين المتخصصين فى كل فن وعلم ، واذا كانوا قد وصلوا ، بذلك الى أن يثبتوا من دعائم هذا الخليط من الآراء الذى يسمونه الآن « المسيحية » رغم ما يثبته مؤرخو الاديان من تغيير فيها وتبديل ، اذا كان المسيحيون قد فعلوا هذا وأكثر من هذا ، أفلا نخرج من عزلتنا فندعو العلماء المتخصصين الى التكاتف معناوالعمل على خدمةكتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ؟

ولو قام الازهر على رأس هيئة من المتخصصين لكان عمله لاريب أقرب الى الكمال . بيد أن القرآن يفسره الزمن : « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى** » .

لذلك كانت مهمة الازهر فى هذا الصدد دائمة مستمرة ، وكان الوضع الطبيعى ألا تنتهى هذه الهيئة من تفسير كتاب الله حتى تبدأ فى تفسيره من جديد .

واذا كان الفرنسيون وغيرهم من الامم الغربية يفعلون هذا فيمايتعلق بقاموس لغوى فلا ينتهون الا ليبدءوا ، أفلا نقوم نحن بذلك بالنسبة لكتاب الله الخالد ؟ لعل الأزهر يقوم بتنفيذ الفكرة ولو فى صورة مصغرة . والمشاريع لا ينقص من قدرها أن تبدأ متواضعة ثم تنمو .

أما بعد ، فموعدنا ، لتفسير سورة التحريم ، العدد القادم ان شاء الله .

وأما بعد ، فيقول الجاحظ : اذا سمعت انسانا يقول : ما ترك الاول للآخر شيئا فاعلم انه يريد أن لا يفلح .